الوهابية والصوف

للأستاذ أبو الوفا التفتازانى
الأستاذ بجامعة القاهرة

شاع بين الناس الاعتقاد بأن الوهابية ، أتباع محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ هـ — ١٢٠١هـ — ١٧٠٣ م — ١٧٨٧ م) ، هم أعنف خصوم التصوف ، وأن دعوتهم ما قامت إلا من أجل تقويض أركانه وبيان فساد عقيدة منتحليه . وليس ثمة شيء أبعد عن الصواب من هذا الاعتقاد ، فان محمد بن عبد الوهاب وأتباعه قد أقروا التصوف ، وأشادوا بذكر بعض الصوفية ومصنفاتهم ، واعتبروه — فى صورته النقية — منهجا كاملا فى تصفية النفس وتزكية القلب .

وقد يبدو هذا القول غريبا بعض الشيء ، ولكن الواقع يؤيده والنصوص تثبته . وإساءة فهم العلاقة بين مذهب الصوفية ومذهب الوهابية تجيء من أحد أمرين :

الأول : إسراف بعض الوهابيين فى الهجوم على الصوفية بلا دراسة أو فهم للتصوف وأصوله وأهدافه ، واعتقادا منهم بأن التصوف كلـــه باطل ، وهم بهذا يخالفون ماوضعه صاحب دعوتهم نفسه من مبادىء .

الثانى : إسراف بعض الصوفية المقلدين فى الانسياق وراء الشكليات ، ومبالغتهم فى التحدث بمناقب أوليائهم وكراماتهم ، وفى التوسل ، وفى زيارة قبور الصالحين وأضرحتهم ، فاذا ردهم عما هم فيه ناصح أمين ، مبينا لهم آداب الشريعة فى كل هـذا ، سارعوا إلى القول بأنه « وهابى » عدو لأهل الله .

ونحن فى هذا البحث القصير نريد أن نوضح أن محمد بن عبد الوهاب نفسه قد بدأ حياته صوفيا ، ولم ينكر طريقة الصوفية ، كما أنه صرح بأن التوحيد الخالص الذى يدعو إليه

مستمد من بعض مصنفات الصوفية . ونريد كذلك أن نبين أن التصوف المستمد من الكتاب والسنة لا يمكن أن يكون محلا لطعن الوهابية أو لطعن غيرهم ، إذ هو خلاصـــة تعاليم الإسلام ، وهو دعوة إصلاحية تلائم بين حياة الناس فى المجتمع وحياة التعبد الروحية

ولنبدأ بأن نلقى ضوءا على حياة محمد بن عبد الوهاب لنتبين منها كيف ارتبطت حياته منذ حداثة سنه بالتصوف :

يحكى المؤرخون لمحمد بن عبد الوهاب أنه ولد فى عينية سنة ١١١٥ هـ ، ثم درس بعد ذلك فى المدينة على أستاذين هما الشيخ سليمان الكردى والشيخ محمد السندى (المتوفى سنة ١١٥٨ هـ — ١٧٤٥ م) .

وكان أستاذه محمد حياة السندى محدثا مشهورا وصوفيا جليلا منتسبا إلى الطريقة الشاذلية التى أسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلى (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) وكان قائما بالدعوة إلى طريق الله فى عصره ، وليس أدل على ذلك من أنه ألف بالمدينة المنورة شرحا على حكم ابن عطاء السكندرى ، الصوفى المصرى المعروف ، وأحد أركان المدرسة الشاذلية .

ومن هنا نرجح القول بأن محمد بن عبد الوهاب قد تأثر بما كان سائدا فى المدينة من تعاليم الصوفية على طريقة الشاذلية ، وبما كان يسمعه من شيخه محمد حياة السنـدى من آداب التصوف .

وبالإضافة إلى هذا فان بعض مؤرخى محمد بن عبد الوهاب يذكرون لنا أنه ذهب إلى أصفهان فى ابتداء حكم نادر شاه (١١٤٨ هـ — ١٧٣٦ م) ، وقيل إنه كان يدرس هناك الفلسفة المشائية لمدة أربع سنوات وكذلك الفلسفه الإشراقيه ومذهب التصوف ، وظـل مدة يظهر للناس اعتناقه لمذهب الصوفيه.

وفوق هذا وذاك فان الأستاذ ماسينيون يذكر لنا أن محمد بن عبد الوهاب قد كتب شرحا على وصية الصوفى شقيق البلخى إلى حاتم الأصم .

ويسمى الوهابيون أنفسهم بالموحدين ، وذلك لأنهم يقيمون عقائدهم على أساس من مذهب السلف ، وكانوا يهدفون إلى الخلاص عن الجدل التقليدى فى العقائد على نحو ما نجده عند المتكلمين والفلاسفة وبعض الصوفية المتفلسفين . وإلى العودة إلى التوحيد الخالص كما كان الشأن فى عهد النبى وصحابته . ولذلك نجدهم يهاجمون فى عنف صوفية الوحدة كابن عربى وابن الفارض ومن نحا نحوهما ، وصوفية الحلول كالحلاج ، وصوفية الاتحاد كالبسطامى ؛ وهم فى هذا مقتدون بابن تيمية (١) .

والواقع أن الوهابية لم يأتوا بجديد فى هذا الشأن ، فقد سبقهم إلى النهى عن الخوض فيما يترتب على الكشف من القول بالوحدة كثير من الصوفية كالشاذلية ، فيقول الشاذلى لمريده « إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف ، وقل لنفسك : إن الله قد ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها لى فى جانب الكشف» .

ويقول السيوطى عن موقف التصوف السنى ومنه تصوف الشاذلية من مسألة الوحدة مانصه : « وإذا تأملت كتب المعتبرين كرسالة القشيرى وغيرها ، وكلام الشاذلى ، وكتب الشيخ تاج الدين (ابن عطاء الله السكندرى) لم تجد فيها لفظة من ذلك (يعنى ألفاظ الوحدة المطلقة ، والقول بقدم العالم ، وقدم الأرواح ، وإثبات الهيولى ، مما هو خارج عن ملة الإسلام ، ولا مايشير إلى التصوف على مذهب الفلاسفة كتصوف ابن سينا) وإن وقع فى كلامهم لفظ الوحدة فمرادهم بالتوحيد وانفراد الله بالوجود ولوازم الوجود لا ذلك الذى يريده أولئك .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى : « . . . والعلم النافع هو علم المعرفه بالله ؛ ولكن من استرسل باطلاق التوحيد ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به فى بحر الزندقة ؛

(١) الواقع أن الهجوم على مذاهب هؤلاء الصوفية محفوف بالمخاطر ، ولا يصح فى رأينا أن نهاجم أصحابها مالم نصل إلى ما وصلوا إليه ، وما لم نتذوق ما تذوقوه ؛ فعلومهم ذوق خالص يحصل بالمجاهدة ، وعرفان خاص يحصل بالمشاهدة ، والمهاجمون لهم يصطنعون العقل ومناهجه فى نقدهم ؛ وهو خطأ منهجى منهم .

والشأن أن يكون بالحقيقة مؤيدا وبالشريعة مقيدا » .

والمهم أن محمد بن عبد الوهاب نفسه قد ذكر أن بعض كتب المحققين من الشاذلية قد تضمنت التوحيد الخالص الذى يدعو إليه ؛ ومن هذه الكتب « شرح ابن عباد النفرى الرندى على حكم ابن عطـــاء السكندرى » ؛ وقد عرفنا هذا من كتاب كتبه محمد ابن عبد الوهاب تضمن خلاصة دعوته وعقيدته ؛ ويهاجم فيه التوسل ؛ ويبحث مسألة الشفاعة ؛ وزيارة القبور ؛ وتقديم النذور ؛ وما الى ذلك ؛ ويقول فى نهاية هذا الكتاب مانصه : « . . وندعو الناس الى الصلوات فى الجماعات على الوجه المشروع وايتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ؛ ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . . . فهذا هو الذى نعتقده وندين الله به ؛ فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم ؛ له مالنا ؛ وعليه ماعلينا ؛ ونعتقد أيضا أن أمة محمـــد صلى الله عليه وسلم ؛ المتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة ؛ وأنه لا تزال طائفه من أمته على الحق منصورة ؛ لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك .

«أقول : ان كان كذلك فهذا ماندين الله به نحن أيضا ؛ وهو خلاصه لباب التوحيد وما علينا من المارقين والمتعصبين ؛ وقد بسط الكلام فى ذلك (يعنى فى التوحيد الخالص) ابن القيم فى كتابه « اغاثة اللهفان » ؛ والحافظ المقريزى فى « تجريد التوحيد » ؛ والإمام اليوسى فى « شرح الكبرى » و « شرح الحكم لابن عباد » ، وكتاب « جمع الفضائل وقمع الرذائل ؛ وكتاب « مصايد الشيطان » وغير ذلك . اهـ» ويوافق الوهابية الصوفيه فى كثير من عقائدهم ورياضاتهم العمليه .

(ا) فيوافق الوهابية الصوفية فيما يتعلق برياضة الذكر . ويرونه كذلك وسيلة مقربة إلى الله عزوجل ، وأنه ثابت بالكتاب والسنة ، فيقول عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب مانصه « وأما أحزاب العلماء المنتخبة من الكتاب والسنة فلا مانع من قراءتها والمواظبة عليها ، فان الأذكار ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، والاستغفار ، وتلاوة القرآن ، ونحو ذلك مطلوب شرعا ، والمعتنى به مثاب مأجور ، فكلما أكثر منه العبد كان أوفر ثوابا ، لكن على الوجه المشروع دون تقطع ولا تغير ولا تحريف ، وقد قال الله تعالى : « ادعوا ربكم تضرعا وخيفة » . وقال الله تعالى : « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها » . ولله در النووى فى حســـن كتاب « الأذكار » ، فعلى الحريص على ذلك به فقيه كفاية للموفق »

(ب) ويوافق الوهابية الصوفية وأهل السنة والجماعة فى إثبات الكرامة للولى ، ويؤمنون

كذلك بما يقول به الصوفية وغيرهم من استجابة الدعاء ، فيقول عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ما نصه : « ولا ننكر كرامات الأولياء ، ونعترف لهم بالحق ، وأنهم على هدى من ربهم مهما ساروا على الطريقة الشرعية والقوانين المرعية ، إلا أنهم (أى الأولياء) لا يستحقون شيئا من أنواع العبادات ، لا حال الحياة ، ولا بعد الممات ، بل يطلب من أحدهم الدعاء حال حيانه ، بل ومن كل مسلم ، فقد جاء فى الحديث : دعاء المرء مستجاب لأخيه »

(ح) وبالجملة ، فان الوهابية لا ينكرون طريق الصوفية ، بدل عليه فى صراحة ووضوح هذا النص : يقول عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : « .. ولا ننكر الطريقة الصوفية ، وتنزيه الباطن عن رذائل المعاصى المتعلقة بالقلب والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعى والمنهج القويم المرعى . إلا أننا لا نتكلف له تأويلا فى كلامه ولا فى أفعاله ، ولا نحول ونستعين ونستنصر فى جميع أمورنا إلا على الله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

ومما سبق كله يتبين لنا فى وضوح وجلاء أن محمد بن عبد الوهاب درس التصوف فى صباه ، واعتنق مذهبه ، وألف فيه ، وأنه كان ضد نوع معين من التصوف ، وأعنى به تصوف الوحدة ، وكان فى هذا متابعا لابن تيمية وأنه كان ميالا إلى التصوف السنى ممثلا فى تصوف الشاذليه ومنهم ابن عطاء الله السكندرى وابن عباد الرندى ، ويتبين كذلك أن الوهابية يوافقون الصوفية فى بعض المسائل الفرعية كالأذكار ، والاعتقاد بكرامات الأولياء ، وأنهم بوجه عام لا ينكرون طريقه الصوفية .

فاذا تبين هذا نقول : إن نقد ابن عبد الوهاب للصوفية ليس نقدا لفكرة التصوف ذاتها وطريقته ، وإنما هو نقد لبعض النظريات الصوفية ، ولبعض طقوس الطرق الصوفية ونقد للتوسل وبناء القباب على القبور ، وزيارة هذه القبور وتعديم النذور ، وما إلى ذلك من الأمور الشكلية التى يمارسها العامة وليست من صميم التصوف فى شىء وقد اتجهت الصوفية فى عهدها الجديد الى محاولة تخليص التصوف مما شابه من شوائب ، وابرازه فى صورته الكاملة النقية التى لا مطعن فيها ولا غبار عليها ، لأنها تصور السمو الروحى فى الإسلام ، وتعبر عن المثل الأعلى للمسلمين ؟

أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

المجلة :

الأستاذ التفتازانى ، باحث مدقق ، وصوفى مستنير ، وبحثه الذى نقدمه اليوم يفتح

أبوابا واسعة للتلاقى والتفاهم بين قوتين كبيرتين من قوى الإسلام . الصوفية و الوهابية .

ولكننا نختلف مع الأستاذ التفتازانى كل الاختلاف فى تقسيمه التصوف إلى تصوف سنى . وتصوف وحدة . . فالتصوف الاسلامى على تعدد معارفه والهاماته إنمـــا يستمد وجوده وعلومه وآدابه ورقائقه من القرآن والسنة . وكل من ابتعد عن هذا النبع الربانى فقد ابتعد عن التصوف .

وابن عربى شيخ التصوف الأكبر وابن الفارض شاعر الالهام الأعظم ما كانا يوما من أصحاب الوحدة المادية بل هما من أكبر خصومها .

والحلاج شهيد التصوف الإسلامى عاش حياته محبا فانيا مستغرقا فى المشاهدة والمناجاة . فكيف نقذف فى وجهه بكبيرة الحلول ؟ .

وأبو اليزيد البسطامى شيخ من شيوخ الهدى واليقين . لا يعرف الاتحاد وما إلى الاتحاد من مذاهب فلسفية وغنوصية باطلة وموعدنا فى العدد القادم إن شاء الله مع بيان أوسع و تفصيل أكمل والله يهدى إلى سواء السبيل .

من هم المتقون

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

تلك كلمات الله المقدسة ، وتعريفاته جل جلاله لمعانى التقوى ، وأنها عمل للدين والدنيا ، لا صور ورسوم ، وجهالات وأزياء فليحاسب كل صوفى ، وكل مسلم نفسه ، وليحاكم أعماله وأقواله إلى تلك الموازين القسط إن أحب أن يكون من الأبرار المتقين .